تمهيد

١

«شعر الطبيعة» اصطلاح طريف فى تاريخ أدبنا ، دخل إليه من الآداب الأجنبية . فمن الخير الإلمام بمعناه عند الغربيين ، فى غير قصد إلى إكراه الأدب العربى على الخضوع لمقاييس أجنبية ، أو تعريف فن من فنونه بما ليس من طبيعته ، ففى هذا القصد خطر على البحث الفنى ، ومباعدة بين الفن وتاريخه من ناحية ، وبين حاضره وماضيه من ناحية أخرى . لكن الفن العربى إذا استطاع مسايرة الفنون العالمية ، ومشاركتها المعايير والمقاييس فى غير عناء ولاعنت ، كان ذلك عوناً له وللمشتغلين به ، من نقاد وأدباء ، على التبريز وبلوغ الكمال ، ويتعين الأمر إذا كان البحث ، كموضوعنا ، طريفاً فى الفن القومى ، سابقاً فى الفنون الأجنبية ، وكانت مواده مشتركة بينها جميعاً . فالإفادة من تجارب الغير لازمة مادامت طبيعة البيئة والحياة الخاصة مرعية ، ومادام تقدير العوامل المختلفة فى نمو الفنون والآداب ملحوظاً .

على أن هذا الاصطلاح : Po sie de la Nature, Poetry of Nature ليس قديماً فى الآداب الغربية ، وإنما أطلقه النقاد على الشعر الذى ساد لأواخر القرن الثامن عشر فى حركة «الرومنتسزم : Romanticism ، وكان من أهم مظاهرها .

وتفيد «الرومنتسزم» معنى الديمقراطية فى الأدب بعد الأرستقراطية فيه ، أو بدء السيادة العقلية للفرد وزوال العبودية ، أو كما قال فكتور هوجو Victor Hugo : «الحرية فى الأدب» (١) .

والعبودية سمة لعصر «الكلاسيزم : Clussism» الذى تقدم عصر الرومنتسزم بوقت غير طويل . وكانت أهم مميزات الشعر فيه : السير على سنن القدماء من يونان ولاتين ، وضيق الخيال ،

(١) Heinrich: The Prose Writings, Scott Lib. p. 68-69. and W.H. Hudson; Hist. of eng. Lit 1628, p. 203.

وخمود العاطفة ، وتمثيل المدينة والطبقات بآدابها وجدلها وسياستها ، والبعد عن تصوير العامة والمشاهد الريفية ، ونبذ كل ما يتصل بالعصور الوسطى من آداب وفروسية وحماسة دينية . ثم كانت ، إلى جانب هذه المميزات العامة فى الأدب الأوروبى ، مميزاتٌ خاصة ببعض البلاد . ومن أعجبها ماقرره النقاد الإنجليز لذلك العصر، فى غير داع ولا ضرورة ، من أن ماسبق منتصف القرن السابع عشر من أدب غير تمثيلى ينبغى أن يهمل ، أما الشعر التمثيلى فأصحابه ، وفيهم شكسبير Shakespeare وشوسر Chaucer ، فليسوا إلا طائفة من الأطفال الملهمين غير المثقفين (١) .

أما « الرومانتسزم » فكانت فى الواقع من مظاهر الحركة العامة لتحرير الفرد فى القرن الثامن عشر ، كما كانت الثورة السياسية مظهراً لها ، وكما كانت الحركات الفلسفية والخلقية والدينية مظاهر أخرى . وأساسها نبذ التقليد أو ما يسمى « قواعد الفن » ، والإيمان بأن العبقرية الشعرية هبة وقانون فى ذاتها . ومن هنا برزت فى الشعر قوة العاطفة ودقة الشعور ، وظهر الطموح والتأمل ، والابتكار فى الموضوع والأسلوب ، ونبذ التكلف . وساير النقد الفن فكانت القاعدة الفنية هى ما يعجب الناقد ، لا ما يرضى أرسطو ، وهوراس "Horace" ، وبوب Pope ، وجونسون Johnson ، وكان كل ناقد خبيراً يستمد خبرته من حواسه وحدها .

ويكفى لبيان الفرق بين العصرين قول بوب الكلاسيكى محتجًّا لاتباع القواعد اليونانية :

« هذه القواعد القديمة المستنبطة غير المستحدثة » .

« هى الطبيعة عينها ، بل الطبيعة مزينة » .

ثم قول كيتس Keats شاعر الطبيعة : « يجب أن تحرر عبقرية الشعر نفسها ، فهى لا تستطيع بلوغ الكمال بقانون وسنن ، بل بالشعور والملاحظة الذاتية . والمبدع يجب أن يبدع نفسه » (٢) .

واتصل بالرومنتسزم وسار معها جنباً إلى جنب شعر الطبيعة . ذلك بأن الشعراء ، كما قرر وردسورث : Wordsworth شاعر الطبيعة ، قد وجدوا فى الريف ميداناً أفسح لحرية العمل ، وتربة أخصب لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح .

على أن هذه الحركة لم تكن منقطعة الصلة بالماضى ، بل كانت فى الواقع إحياء له .

---

(١) George Saintsbury : Hist. of Eng. Lit. 1908, p. 624-626.

(٢) Hudson's., p. 219.

ولهذا قالوا : «بعث الماضى الرومانتيكى» و «إحياء شعر الطبيعة» ، وأحيوا آداب الأمم المتبربرة التى سكنت غرب أوربا منذ القدم ,Goeje ، والآداب القوطية Celtic وآداب العصور الوسطى ، والآداب الإسكندنيفية Scandinavian ، والآداب الشرقية وبخاصة الهندية ، وكل ما اعتبروه رومانتيكيًّا فى صدق التعبير عن العاطفة . وبهذا أحيوا أشعار الطبيعة القديمة التى تتغنى بالريف وحياة الراعى ، وتردد أغانى البلابل فى الربيع ، وتصف الجبال والضباب والسحاب .

ولا يرجع شعر الطبيعة إلى هذه الآثار الأدبية فقط ، وإنما يرجع كذلك إلى أقدم الآثار اليونانية ؛ فهناك قطع قديمة مجهولة المنشأ تمثل الطبيعة فتانة بزهرها ومائها ، تفيض على الكون الحياة ،وتخرج الآلهة. وقد شهد جوته Goethe لليونان شهادة قاطعة فى هذا الباب ؛ إذ قرر أن الطبيعة قد بلغت أبهى الجمال فى أدبهم . وأعجب كيتس شاعر الطبيعة بأدبهم إعجاباً كبيراً ، بل كان شعراء الطبيعة ، كشلى Shelley وسوينبرن : Swinburn وأرنولد : Arnold ، يستمدون وحيهم من اليونان . كما ظفرت الإلياذة والأوديسا بقدر رائع من هذا الفن .

٢

وهناك فن شعرى وثيق الصلة بشعر الطبيعة ، بل هو منه كالأصل من الفرع ، ألا وهو الشعر الراعى : Pastoral Poetry or Bucolic Poetry ، أو الريفى : Rural . وقد نما هذا الفن وازدهر فى عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل بترارك Petrarch ، بما شغف بالطبيعة ، فأوى إلى الجبال والغابات بينما كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين ، كان من العوامل القوية فى نموه .

وكان شعر الطبيعة فى هذا العصر تقليداً لما يسمى عند اليونان : Ldyl,ldyll ، وعند الرومان : Eclogue . وأصل معنى الأول صورة موجزة ، لكن صفة الراعى اتصلت به منذ القرن الثالث قبل الميلاد حين ألف ثيوكريتس : Theocritus الإسكندرى أناشيده العشر الراعيَّة . وهو يعنى فى تاريخ الأدب ، على ما يكتنف معناه من إبهام : «مقطوعة شعرية قصيرة ذات طابع ريفى تمثل مناظر البيئة الطبيعية» . ومعنى الثانى اللغوى «مختار» أو «حوار راعىٍّ» . ويطلق على كل قصيدة ريفية قصيرة ذات حوار . وقد اتصل به معنى المحاورة من راعيَّات

فرجيل Virgil . لكن هذا المعنى الذى اتصل به ، تمييزاً عن سابقه Idyl ، لم يلزمه فى تاريخ الأدب ، بل استعمل فى الغالب مرادفاً له (١) .

وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ فى نشأة هذه الأغانى ، كما كان لشعرائهم فضل صقلها . ولا تزال مناطق اليونان الريفية محتفظة بجمال أناشيدها وموسيقاها الرائعة . لكن الشكل الممتاز لهذه الأناشيد قد وجد عند جماعة اليونان الذين رحلوا إلى صقلية المشرقة ، حيث الطبيعة الجميلة بمرتفعاتها وسهولها ، ينساب رعاة الثيران والضأن بينها طول العام ، ثم يجتمعون للغناء والطرب فى أعياد آلهة الزرع والربيع .

لكن ثيوكريتس يعتبر منشئ هذا النوع على نحو أدبى ممتاز . كان عاشقاً للريف ، محروماً بإقامته فى الإسكندرية لعهد البطالسة ، فعبر عن ذكرياته الأولى فى موطنه الريفى اليونانى تعبيراً جميلاً ، يضفى عليه الحرمان أنواعاً من البهاء .

وقد ثبت ثيوكريتس بعض الأشكال التقليدية للشعر الراعىّ ، مثل المطارحات الغنائية على رهان ريفى ، ووصف الحمل الأبيض ، وقدح الشراب الخشبى ، والتنافس بين عاشقين ، والوقوف بقبر راع ، وبكاء الحب الضائع .

ثم أتى فرجيل فنقل راعيّات ثيوكريتس إلى ميادينه الإيطالية ، بعد أن زاد فى صقلها الفنى ، وأكسبها جمال حدائق الأعناب ، ونضارة حقول القمح .

وفى عصر النهضة ازدهر هذا الفن بإيطاليا ، ودخل الميادين التمثيلية ، وتطور فى الأسلوب والوزن .

وفى القرن السادس عشر تقدم فى فرنسا متأثراً بريفيات القرون الوسطى التى كانت تتخذ فى تنوعها شكلاً متقارباً ؛ وهو قصة شاب نبيل يلقى راعية فى الحقول ، فينزل عن جواده ويخطب ودها . وقد ينجح فيحظى بها ، وقد يفشل فيركب وينطلق فى سبيله .

وتأثرت نهضته فى القرن السادس عشر بمجهودات بعض الشعراء ، وبالأثر الدينى الذى قدمه العهدان القديم والجديد ؛ قدم الأولى داود فى صباه الطروب يغنى بين الغنم وقدم الثانى ليلة الرعاة الساهرة تحت سماء بيت لحم المتألقة .

وفى أواخر القرن السادس عشر تأثر هذا الفن فى إنجلترا بنهضته فى إيطاليا وفرنسا ، فنقلها

---

(١) J.W. Machail: The Springs of Helicon 1909. p. 77, 83-85, and Edmund K. Chambers: English Pastorals p. 1—XXVII.

إليها سدنى Sidney فى قصته سيدة مايو : The Lady of May وكان من أصحاب النزعات الرومانتيكية وإن لم يقدس الطبيعة ؛ فقرر أن الشاعر يسمو فوق الطبيعة ويجملها ولا يتقيد بمداها الضيق ، وأن حريته لا يحدها سوى دائرته الذهنية الخاصة [١] .

ومن قبله كان هذا الفن ، عند الكتاب الإنجليز ، تقليديًّا فى الأسلوب والموضوع . لكن الشعراء الأسكوتلانديين سبقوهم فرسموا من الطبيعة بلا واسطة ، واعتمدوا على الإحساس ودقة الملاحظة ، كما كان لمواطنيهم من بعد أكبر الفضل فى ذيوع شعر الطبيعة .

وأتى سبنسر Spenser فتأثر بماضى وطنه الأدبى ، كما تأثر بآداب اليونان واللاتين ، وأخرج تقويم الراعى : The Shepherd's Calendar فكانا إيذانا بعصر جديد فى هذا الفن ؛ تبدو فيه شخصية الشاعر وروعة تأثره بالطبيعة . وقد كتبه فى اثنى عشر قسماً يصور كل منها حياة الراعى فى شهر من شهور السنة ، ومثل الطبيعة تمثيلاً جعله من شعرائها المعدودين . ففى القسم الأول مثلاً يصور فى إبداع شعور راع يندب نضارة الزهر والشجر ، ويبكى جهالها قبل أن يأتى الشتاء عليها ، ثم يصف حالها الحائلة . وفى القسم السادس يصف جمال الطبيعة فى عين الراعى المتيم ، وما يسبغه الحب عليها ، ويربط بين طربه وطرب الطيور على الأغصان . وكانت نزعة التحرر واضحة عنده فى اصطناع لغة العامة ، واتساع الشعر الراعىّ للغناء والتمثيل والقصص .

والواقع أن هذا الفن ، للقرنين السادس عشر والسابع عشر ، قد صور الطبيعة تصويراً متقناً . وكانت له وجهتان : وجهة سبنسر وجماعته ، ووجهة دن Donne وجماعته . والأولى موسيقية ، والثانية خيالية . فى الأولى مادة الشعر شفافة تصف عناصر الحياة الغضة ، وتتغنى بالحياة والصباح والربيع ، وفى الثانية نرى تعقيداً وغموضاً وعمقاً فى الشعور وتأملاً وتشاؤماً . والأولى تصور الطبيعة الرعوية فى سذاجتها ، والثانية تفلسف الراعى فتضعه موضع الشاعر بخياله وفكره ؛ فهى فى الواقع رومانتيكية ليس لها من شعر الرعاة سوى الوضع التقليدى القائم على أن راعياً يصور الحياة والطبيعة ، أو يتحاور هو وآخر ، أو يتجاذب هو وراعية التغنى بالريف والحب .

وفى هذه الحقبة نجد Robert Greene يصور الطبيعة وبيئة الرعاة بأنعامها وتقاليدها ، ويبالغ فى تنظيم حياة الراعى حتى يفضلها على حياة الملك [٢] ، كما نجد لشكسبير قطعاً ريفية

---

(١) Sir Philip Sidney : Eng. Lit. Criticism p. 13-20.

(٢) Eng. Pas. p. 56-61.

تعتبر من شعر الطبيعة فى الطليعة ؛ مثّل الريف الفتان [١] ، وتغنى بجمال الطبيعة ، وأطلق صوتُه مع الطيور المغردة ، وأهاب بأصحابه أن يحيوا معه فى كنف الشجر الأخضر حيث لا أحقاد ولا أضغان [٢] ، وفتن بالشتاء ودافع عن عواصفه [٣] .

ومن بعد هذا أتى عصر بوب . ومع مبالغة شعرائه فى التقليد وتوفرهم على الحياة المدنية ، فإننا قد نحس فيه نسيماً يهب من الحقول والغابات ، ونبصر بشعر يُحيّى الطبيعة ، ويهيم بالجمال الريفى .

فشعر الرعاة قد مثل الطبيعة بحيوانها وطيورها ، وعذب ألحانها ، وغاباتها ، وحقولها ، وحدائقها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية . لكنه لم يصدر فى الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور ، بل عن التقليد والتخيل ، أو هو تنفيس الشاعر المدنى عن نفسه إذ ضاق بصخب المدينة ، فتمثل حياة أكثر سعادة وأوفر قناعة . ومن هنا ران عليه فى الأحيان الخلط والخطأ ؛ كأن يصف شاعر زهراً فى غير موطنه وأوانه ، أو طيراً فى غير فصله ، أو يحيل فى التعريف بمنظر لم يشهده . لكن بعضهم قد رأى وتأثر ثم عبر فأحسن التعبير .

٣

ويكنى أن ننظر فى أى من كتب المقتبسات الشعرية المفصلة لنرى أن شعر الطبيعة ، بالمعنى العام ، قسمة بين جميع العصور ، وأنه ساد وعمقت فلسفته فى حركة الرومنتسزم . والصلة بين شعر الطبيعة وسلفه شعر الرعاة واضحة فى الاثنين ؛ فجملة الموضوعات قسمة بينهما ، ونرى فى الثانى فلسفة أحياناً ، كما نرى فى الأول الراعى السعيد الطروب يغنى وغنمه من حوله ، واليسيا Elysia بمراعيها وحدائقها ، واصطناعاً لأسلوب الحوار الراعىّ .

وحين ظهرت بوادر الرومانتسزم زال شعر الرعاة ، بعد أن انحط إلى درك القص الساذج لحياة الراعى ، وسط السخرية ببساطته أو تفاهته الحاضرة والنسيان لماضيه المشرق ، وحل مكانه شعر الطبيعة بما فيه من دروس عميقة ، أو بعث شعر الرعاة الراقى على طريقة أخرى

---

(١) As You Like It : Act II, Scene V.

(٢) Love's Labour Lost; Act V, Scene II.

(٣) A Winter's Tale.

يستغنى فيها عن أناشيد الرعاة وأحاديثهم ، ويقوم الشاعر نفسه مصوراً للطبيعة كما تمثلتها نفسه الحرة التى امتزجت بها . قال وليم هزليت William Hazlitt : «إن للطبيعة شعراً يتمثل فى حركة الموج وجمال الزهر» .

وقال كيتس : «إذا رأيت عصفوراً أمام نافذة حجرتى كنت جزءاً منه ، أنقر معه الحصى كلما نقر» . وقال شلى : «إن الشاعر بلبل جلس فى الظلام يسرى عن الوحدة بالنغم العذب[1] » . ورأى وردزورث «الطبيعة تجسيم الروح القدسى[2] » ، وقرر كوليردج Samuel Coleridge شاعر الطبيعة أن من أصول الشعر عمق الفكرة وقوتها وأن الشاعر العظيم يجب أن يكون فيلسوفاً عظيماً ؛ فهو يطالع فى دأب ، ويفكر فى عمق حتى تصير المعرفة طبعاً له ، ويتأمل نفسه ، ثم ينتج ، بعد ذلك كله ، إنتاجاً ذاتيًّا قويًّا .

وتصوير الطبيعة وصلة الشاعر بها قد اختلفا بين شعراء الطبيعة ؛ فمنهم من كان يرى الاختيار من الطبيعة العادية مع تجميلها ، ومنهم من كان يرى الاختيار من الطبيعة الخيالية مادام التصديق الشعرى لا ينكر الإغراب ، بل يعترف بالآلهة وأنصافها والمخلوقات الملفقة .

وكان قوام حركة الرومنتسيزم الفرد وسيادته وعدم خضوعه لغير شخصيته وعالمه ، ثم وجدت من بعد حركة ترمى إلى إحلال الجماعة محل الفرد ؛ بمعنى أن الشاعر يمثل الجماعة وأنماط حياتها وتصوراتها .

٤

وبعد ، فيمكن أن نتساءل : ما هو شعر الطبيعة فى العربية ؟ ولعل ما سبق كاف فى تعريفه ، إذا أخذنا بأن الفنون الأدبية لا تخضع للحدود المانعة الجامعة ، وبخاصة فى موضوعنا : شعر الطبيعة الذى يعتمد على الحرية المطلقة ، وينهض حين يتحرر من كل قيد .

وإن صح اصطناع لغة المعاجم اللغوية فى هذا الباب ، فهو الشعر الذى يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه . والطبيعة تعنى شيئين : الحى مما عدا الإنسان ، والصامت كالحدائق

---

(١) Hudson's p. 225.

(٢) Eng. Lit. Criticism p. 123, 192,

والحقول والغابات والجبال وما إليها [١] . ومن هنا قالوا : شاعر الطبيعة وشاعر الإنسان ، كما قالوا : موضوعات الشعر ثلاثة ؛ الله ، والطبيعة ، والإنسان .

وإذا قدرنا تطور الفكر فى ألف عام أو أكثر بين الشعر العربى القديم والشعر الأوربى الحديث ، ثم ذكرنا الحركات الطويلة المتصلة التى مرت بشعر الطبيعة فى الغرب قبل أن يبلغ ما بلغه فى القرن الثامن عشر – استطعنا أن نقرر فى اطمئنان أن هذا الفن قد استوى على نحو رائع فى العربية ، وأن الشاعر الجاهلى قد تهيأ له من هذا الفن حظ عظيم [٢] .

وقد يكون الشعر العربى القديم أقرب فى ظاهره لشعر الرعاة من ناحية التصوير للحياة البدوية . لكن هذا لا يصح من ناحية الفن . ذلك بأن الشاعر العربى القديم كان شاعر طبيعة ؛ يتأمل فيها ، ويبثها آلامه ، وينسى عندها أحزانه ، ويحبها ، ويفتن بها ، ويصورها ، كما امتثلتها نفسه ، تثير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده وتستهويه الصحراء بحيوانها ، ورمالها ، وآلها ، وآبارها ، وواحاتها ، ونجومها ، وبرقها ، ومطرها . فالشاعر الجاهلى إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدويًّا أو راعياً ، كما صنع شعراء العصور الوسطى والقديمة الأوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية ، وتحرر من قيود الماضى ، فإنه صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعد فى بيئة مشابهة .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة .

وإذاً فيمكن تعريفه ، فى إجمال غير جميل ، بأنه الشعر الذى يمثل الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، كما امتثلتها نفس الشاعر وجمّلها خياله .

٥

ونعلم أن شعر الحماسة : Epic Poetry أقدم فنون الشعر اليونانى ، ثم تلاه شعر الغناء : Lyric Poetry ، وجاء من بعده شعر المأساة التمثيلية : Dramatic Poetry ، وأعقبته الملاهى : Plays .

---

(١) J. Lemaître : Les contemporains 5° S rie, p. 19 et Daniel Mornet; Histoire de la litt rature et de la pens e Française contemporaines p. 64-73.

(٢) Hetzfeld & Dermesteter : Dictionnaire g n ral de la langue française II°, p. 1875 : Nature & Encyc. Bri.

وقد رأينا أن وصف الطبيعة دخل شعر الحماسة فى الإلياذة والأوديسا ، وأنه وجد على أنه فن ريفى بعد هذا بنحو ثلاثة قرون فى القرن السادس قبل الميلاد ، ثم اتخذ الوضع الفنى المتقن على يد ثيوكريتس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم رأينا أنه قد اتصل بالتمثيل والقصص عند الإيطاليين وغيرهم من بعدهم . أما شعر الطبيعة الرومانتيكى فكان غنائيًّا فى جملته ، كما دخل التمثيليات والقصص .

والشعر الغنائى أبسط الفنون الشعرية فى أصله . ذلك بأن للشعر ثلاث مراتب :

الأولى ، مرتبة الشعراء الغنائيين ، وكل منهم يغنى بحنجرته الواحدة لحناً واحداً .

والثانية ، مرتبة الجمهرة من شعراء الحماسة والتمثيل ، وكل منهم يغنى بحنجرته الواحدة ألحاناً عدة .

والثالثة ، مرتبة الممتازين من شعراء الحماسة والتمثيل . وهؤلاء قد وهبتهم الطبيعة حناجر عدة ليغنوا جميع الألحان ، ومنهم هومر : Homer وشكسبير : Shakespeare وسوفوكليس : Sophocles وإيسكيلوس : Aeschylus .

وفى الأولى تدخل الجمهرة من شعراء الطبيعة ، وفى الثانية أعلامه من أمثال هينه : Heine ولامارتين : Lamartine وكولريدج وكيتس وبيرون : Byron وشيلى . وشعراء المرتبة الثالثة قد أخذوا كما مر بحظ من هذا الفن يجعلهم من مؤسسيه .

وهذا الوضع واضح مادامت الشخصية من الصفات الغالبة فى شعر الطبيعة ، ومادام الشعراء التمثيليون أكثر الناس إيغالاً فى الموضوعية .

فطبيعة هذا الفن ، على ما اتصل به أخيراً من فلسفة وتعقيد ، تجعله من أكثر فنون الشعر ملاءمة للشعراء الأولين ، وللبيئات الساذجة . ولهذا وجد بمعناه العام بين الفلاحين اليونان قديماً وحديثاً ، وبين الجماعات المتبربرة وسكان أوربا القديمة والوسطى .

والمأثور من الأدب المصرى القديم ، وهو من أقدم الآداب المأثورة ، يبين أن أصول شعر الطبيعة موجودة فى أقدم فنون الشعر المصرى ، فقد حفل ذلك الأدب فى عصره الأول ببذور شعر الطبيعة . كان الرعاة المصريون يسوقون الأغنام ، عقب الفيضان ، فوق التربة اللينة لتحرث الأرض بحوافرها الحادة ، وينشدون فى ذلك الأناشيد المطردة ، وكان صيادو السمك يغنون ، وهم يشدون الشبكة من الماء ، بما يشبه حداء الإبل عند العرب الجاهليين من بعد . .

ومتون الأهرام حوت نصوصاً فى الأدب الدينى الذى يرشد الأرواح إلى السماء . وهى على

قصور دلالتها فى موضوعنا ، تبين مدى تأثرهم بالطبيعة ؛ فالأخيلة منتزعة من البيئة المصرية بأرضها ونيلها وزرعها وحيوانها ، والحب شديد لكل ما فيها حتى للأفاعى . . .

ولا جرم أن المقطوعات الدينية تأتى متأخرة عن المقطوعات الريفية التى يغنيها الفلاح القديم فى أحضان الطبيعة قبل أن يعرف الله . لكن الأولى تدل على الثانية وتشير إلى نوعها . كما أن الطبيعة فى الأدب المصرى القديم كان لها متنفس آخر فى سائر الفنون الجميلة ؛ فحروف الكتابة طير وحيوان والآنية وأدوات الموسيقى على هيئة الطير والحيوان ، والحلى صيغت على مثال الزهر والطير ، وللنيل رموز وتماثيل من الطبيعة ، وللحقول لوحات ورسوم من وحيها . . . وهذا ، وإن كان يخدم شعر الطبيعة من ناحية التجويد فإنه لا يخدمه من ناحية الذيوع . وأما اليونان ، فى حياتهم البدوية القديمة ، فكانوا كالعرب ليس لهم متنفس فنى سوى الشعر .

وصلة الفن بالطبيعة مقررة . فالشعر والنحت والتصوير والموسيقى ليست فى الأصل إلا تعبيراً عن الطبيعة وصدى لها . قال بهذا اليونان الأقدمون وعبر عنه ليوناردو دفنشى : Leonardo da Vinci فى مطلع عصر النهضة بقوله : « الطبيعة معلمة المعلمين جميعاً » [١] إنها مصدر الفن ومثله الأعلى ، والفنان المجيد هو من كان بها شديد اللصوق . ولوحيها حسن الأداء . وقال شلى : « فى شباب الدنيا يغنى الناس ويرقصون محاكاة للطبيعة وانسجاماً مع موسيقاها . والشعراء منهم هم الذين يشتد هذا المعنى فى نفوسهم » . ثم انتهى إلى أن اللغة فى مولد الجماعة شعر خالص [٢] .

والفن الشعرى ، بهذه الصلة ، يمثل الطبيعة تمثيلاً دقيقاً ، ومن اليسير أن نتبين فيه البيئة بأنهارها وبحارها وسهولها وجبالها وحيوانها ، وبما يسودها من أنظمة وما غبر لها من تاريخ .

وبقدر البيئة والحب لها والفتنة بطبيعتها يكون نمو شعر الطبيعة وازدهاره . فما هى البيئة العربية ، وما مبلغ صلة العربى بها ؟

٦

تشبه جزيرة العرب مثلثاً ، رأسه جبل طور سيناء ، وضلعه الغربى سلسلة جبلية تخترق الشام وفلسطين ثم تنتهى داخل الجزيرة مساحلة للبحر الأحمر إلى بوغاز باب المندب ، والشرق طائفة

(١) B, Brown : The Fine Arts; 1920, p. 7.

(٢) Vaughan : Eng. Lit. Criticism; p. 163-164.

أخرى من الجبال توازى مجرى الفرات والخليج الفارسى حتى تصل إلى بوغاز هرمز ، وتمتد قاعدته على المحيط الهندى بين بوغازى باب المندب وهرمز ، وتنتهى بمرتفعات الجبل الأخضر فى عمان .

ولعل عزلتها بالصحراء فيما لا يحده البحر جعل العرب يطلقون عليها اسم الجزيرة تجوزاً ، أو لعلهم كانوا لا يفرقون بين الجزيرة وشبهها ، كما يرى بعض الباحثين .

وهى عبارة عن هضبة تنحدر تدريجاً من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ؛ ففى غربها تجرى سلسلة من الجبال على طول الساحل بارتفاع متوسطه خمسة آلاف قدم ، لكن ارتفاعها فى الجنوب يبلغ عشرة آلاف . وبين البحر وهذه السلسلة سهل ضيق متوسط عرضه نحو عشرين ميلاً ، وقلما يبلغ ثلاثين ميلاً .

وينقسم منحدر الهضبة إلى منحدرات ثانوية ؛ تتفرع إلى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى ، مع شذوذ الجبل الأخضر فى الجنوب الشرقى ، بارتفاعه الكبير ، عن هذه الصفة العامة .

وليس بها ، على طولها الذى يزيد على ألف كيلومتر وعرضها المقارب لهذا ، غابات ولا أنهار ، وكل ما عرف بها ثلاث مجموعات من المستنقعات الدائمة التى لا تبلغ مقدار البحيرات ، وهى مستنقعات الأحساء والخرج والأفلج .

ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام طبيعية :

١ – قسم أساسى كبير ؛ وهو الصحراء الجرداء يتخللها بعض الواحات والوديان التى يحيا عليها البدويون ، وهو نجد .

٢ – دائرة رملية تحف بالقسم السابق ؛ وهى جدباء مع بقاع ذات نباتات صحراوية تتفرق فى بقاع شتى شمالاً وجنوباً .

وتشمل صحراء النفود والدهناء والربع الخالى .

٣ – دائرة خارجية من السهل والجبل تحيط بالدائرة السابقة ، وبعضها جدب مقفر ، وبعضها خصب معمور . وتشمل صحراء الشام ، وأرض مدين ، والحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، والبحرين .

وتقع جزيرة العرب فى المنطقة الحارة ، لكنها لا تقرن بغيرها من أقاليم هذه المنطقة فى درجة الحرارة ، فأعلى درجة بنجد لا تعدو مائة وثمانى عشرة وأقل درجة لا تنقص عن ثمانى

عشرة . وجو صحراء الوسط صحى جاف . وتبعث ريح الشمال شعوراً كبيراً بالانتعاش والحياة . وتتمتع الهضبة المرتفعة وسلسلة الجبال الغربية ومرتفعات عمان بجو بديع طول السنة . وتتراوح الرياح شمال الجزيرة بين الشرقية والغربية ، والأولى هى ريح الصبا الجميلة ، والثانية تمر بتلال فلسطين حاملة المطر من البحر الأبيض . أما الريح الجنوبية فمطيرة شتاء وحارة صيفاً . وشر رياح الجزيرة ريح السموم التى تهب وسط الصحراء ، وتتلف ما تلقاه من غض النبات ، وقد تخنق الناس والحيوان ، وتعرفها العرب برائحتها الكبريتية .

ويكثر فى شبه الجزيرة النخيل . وتنمو فى الواحات والأراضى الخصبة ، عدا النخيل ، أكثر الفاكهة : كالموز والعنب والمشمش والرمان والتين وبعض أنواع البطيخ ، كما ينمو من الحبوب القمح والذرة ، ويشيع القت فى الصحراء .

وينبت بها الريحان والياسمين والصعتر والزهور الصحراوية ، كما ينبت الورد فى الطائف والمرتفعات . ومن نبات الصحراء الكرات والثوم والبصل والتوابل ، ويزرع البن بكثرة فى اليمن .

ومن حيوان الصحراء الغزال وبقر الوحش فى صحراء النفود والربع الخالى ، والوعل فى بلاد اليمن وعمان والحجاز ، والأرنب والثعلب واليربوع والذئب والنمر والضبع . وتكثر القردة فى الحجاز واليمن ، والقط البرى فى المناطق الجبلية .

ومن أنعام الجزيرة الإبل والخيل والحمير والبقر والأغنام والمعز .

أما الطيور فأهمها النعامة فى الصحراء وأطراف الربع الخالى ، والقطا والحمام واليمام والسمانى والحبارى والعقاب والصقر . ويروع الجراد الحضريين ، ويتخذه البدو طعاماً . وعرفت تربية النحل عند سكان المرتفعات الحجازية .

٧

أما سلطان الطبيعة على العربى القديم فعظيم . والتاريخ شاهد بأن العرب كانوا يؤثرون الصحراء على المدن دائماً . فالذين نزحوا منهم إلى العراق والشام ومصر ، منذ القرن الثانى الميلادى أو قبله ، قد أقاموا بالبادية فى الشام والعراق ومصر على حدود الحضر مع يسر الإقامة به . كما سكن العرب صحارى برقة وطرابلس وتونس والجزائر ؛ يقيمون بها فى فصل الأمطار والمراعى ، فإذا حل الجدب لجأوا إلى الحضر يتزودون منه ، ثم يؤوبون إلى صحرائهم . ولا يزال ذلك دأبهم ؛ يأخذون من خيرات الحضر ، ويتشبثون بالبادية .

ولغتهم قد اصطبغت بصبغة واحدة ، وصدرت عن أصل واحد ، هو الصحراء وما فيها من نبات وحيوان وجماد .

وآداب العرب وسيرتهم ناطقة بشدة حبهم لبيئتهم وهيامهم بها . فإذا خرج البدوى إلى الحضر قال الشعر حسرة على الدهناء ورمالها وسهلها وجبلها ، وأقسم أن رياح الصحراء تثير الغبار أحب إليه من رياح الحضر تهز الأشجار ، وتمنى أن يبيتن ليلة واحدة فى الصحراء . والبادية – عنده – موطن العزة والكرامة ، ومن تحضر فقد العز . كل ما فيها حبيب إلى قلبه ، وإن بدا وضيعاً وكل ما فى الحضر وضيع وإن بدا متطاولاً .

فتماضر بنت مسعود ، حين يخرج بها زوجها إلى المدينة ، تنشد أبياتاً فى بكاء البادية ومعاهدها الحبيبة .

ويروون أن امرأة ضَبِّيَة احتُمِلَتْ من البادية إلى الحضر ، وقعدت على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار فى ألطف وقت وأبهجه ، فقيل لها : كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية ؟ فأطرقت ساعة ثم تنفست وقالت شعراً يعبر عن الحسرة على نجد وطيب ترابه ، والازدراء للحضارة وملاعبها .

وقصة صاحبة معاوية مشهورة .

وهذا شاعر إن رأى المُكَّاءَ على شجر الحضر ، بعد أن كان كعهده به يفرخ على الأرطى فى البادية ، أشفق عليه ، وناداه أن يرتفع إلى البادية وطنه الحبيب فِراراً بنفسه من المرض :

ألا أيها المكَّاءُ مالك ههنا ! ألاءٌ ولا أرطى فأين تبيض ؟ !
فَأَصْعِدْ إلى أرض المَكاكِيِّ واجتنب قرى المصر لا تُصبح وأنت مريض !

وهذا ثان يندب الصحراء ومواقعها ، ويمنى النفس بلقياها :

ألا ليتَ شعرى هل أبِيتَن لَيلةً بصحراء ما بين الجُثُوم إلى شعْر ؟ !

وهذا ثالث يدعو على جبلى غور تهامة بالفناء لأنهما يحولان بينه وبين المتاع بالبادية ، ويعلل قيظها بما يحملان من شوق لنجد ؛ ورابع يجعل وصيته ، إن غلبه القضاء فمات بالحضر ، قراءة السلام على نجد وغضاها ومعاهدها ؛ وخامس يجعل كل أمنيته أن يبيتن ليلة واحدة بالصحراء ، حتى يمتع البصر بكثبانها وتلالها . وكثيراً ما لهج الشعراء بذكر نجد ، وترنموا برباها وريا عطرها وفدوها بالنفس لجمالها .

لكن العرب ، فى تشبثهم بالبادية ، شديدو الإعجاب بجنات الحضر ونعيمه ؛ يقصون عنه القصص ، ويشيدون برخائه .

وكان نزول الغيث مثيراً لشجاعتهم ، حتى قالوا إنهم إذا أخصبوا هاجت أضغانهم ، وطلبوا الثأر من أعدائهم ، وتمنوا أن يتصل الغيث حتى يغيروا على الملوك فيسلبوها عروشها .

قال شاعرهم :

إن الذئاب قد اخضرّت براثنها والناس كلهمُ بكرٌ إذا شبعوا

وقال ثان :

يا ابن هشام أهلك الناسَ اللبن فكلهم يسعى بقَوْسٍ وقَرَن

وقال ثالث :

وفى البقل ، إن لم يدفع الله شرَّهُ شياطين ينزو بعضُهن إلى بعض !

وقال رابع مصوراً حالهم :

قوم إذا اخضَرَّت نِعالهم يتناهقون تناهق الحُمُر !

وقال خامس فى مثله :

قومٌ إذا نبتَ الربيع لهم نبتت عداوتهم مع البقل

ولعل معنى الحرمان هو الذى جعلهم يبالغون فى تقدير الخصب ، ويرون له رونقاً خاصًّا فى هذه البيئة الجرداء .

ودارت عندهم قصص طويلة حول الآبار والمياه ؛ وما ورد حول زمزم وحفرها من روايات مثل فى هذا [1] .

وقدسوا مواطن الماء القديمة ، واعتقدوا فيها سرًّا غامضاً ، كأنما كانت ، فى زعمهم ، مأوى الآلهة وملتقى الأرواح . وكان إذا غمَّ عليهم أمر الغائب جاءوا إلى بئر قديمة بعيدة الغور ، ونادوا : أيا فلان ! ثلاث مرات ، فإن كان ميتاً لم يسمعوا ، فى اعتقادهم ، صوتاً ، وإن كان حيًّا سمعوا [2] .

قال شاعرهم :

دعوتُ أبا المغوارِ فى الحَفر دعوة فما آض صوتى بالذى كنت داعياً

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ط الحلبى ج ١ : ص ١١٦ و ١٥٣ .

(٢) بلوغ الأرب : جـ ٣ ص ٣ وما بعدها .

أظن أبا المغوار فى قعرِ مُظلمٍ تَجُر عليه الزارياتُ السوافيا

وقال آخر :

وكم ناديته فى قَعْرِ ساج بعادِيَّ البئارِ فما أجابا

وقال ثالث :

ألم تعلمى أنى دعوت مجاشعاً من الحَفْرِ والظلماءُ بادٍ كسورُها

وكان إعزازهم لحيوان البادية كبيراً ؛ يؤثرون الخيل والإبل على النفس والولد ، ويضنون على الملوك ببيعها وإعارتها . ونلمح فى حديثهم عن الحيوان ، وحشيه وأنيسه ، الحب والإلف[1] وقد قال النعمان بن المنذر عنهم محقراً : «إنهم يساكنون الوحوش النافرة ، والطير الحائرة »[2] .

ومن دلائل الإلف للحيوان تمام التقليد لصوته . روى أن العربى كان إذا ضل الطريق وغابت عنه المعالم ينبح كالكلب ، فإذا كانت محلة قريبة منه ردد الكلاب نباحه لدقة ما حاكى ، فاهتدى إلى المحلة ولجأ إليها .

ويتصل بهذا تكنية الحيوان كما يكنى الإنسان ، فقالوا : أبا الحارث للأسد ، وأبا الحصين للثعلب ، وأبا مضاء للفرس ، وأم رئام للنعامة ، وغير هذا كثير .

وهذا الإعزاز للحيوان قد يبلغ فى بعض الحالات ضرباً من التقديس ؛ مثل صنيعهم مع البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . فكانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها ، وامتنعوا عن نحرها وركوبها ، وأباحوا لها الماء والمرعى ؛ وهى البحيرة . وإذا ولدت الناقة عشر إناث تهمل ولا تركب ، ولا يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها ؛ وهى السائبة . وإذا أتأمت الشاة عشر إناث فى خمس بطون متتابعة كانت الوصيلة ، وأُجريت مجرى السائبة . والحامى الفحل إذا أنتج عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ، فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلى فى إبله يضرب فيها[3]. فهذه التقاليد تدل ، مع اختلاف فى تفسيرها ، على أنهم كانوا يرتفعون بالحيوان ، فى أحوال خاصة ، إلى ضرب من التقديس يبيح له أعز ما لديهم ؛ وهو الماء والمرعى .

---

(١) الحماسة : ص ١٠١ ، ١٤٦ ، ١٧١

(٢) بلوغ الأرب : ج ١٠ ص ١٤٨

(٣) سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ٩١ ، وبلوغ الأرب : جـ ٣ ص ٣٦ .

ولعل هذا الفناء الشديد فى البيئة هو الذى انتهى بهم إلى عبادة موجودات البادية ؛ فقد عبدوا البائم ، والنبات ، والغزال ، والخيل ، والإبل ، والنخل ، والأعشاب ، والصخور ، والأحجار ، والنجوم كالدبران والشعرى اليمانية وسهيل . ولم تكن آلهتهم ، كآلهة اليونان والرومان ، موجودات معنوية (١) . وكل هذا بين فى وضوح فتنة العرب الشديدة ببيئتهم ، فما سر هذه الفتنة ؟

٨

والحق أن أمر هذه الفتنة يبدو عجباً ؛ فالجزيرة ليست بالمكان السهل ولا بالموطن الرغد ، بل إن فيها لقسوة وجدباً من شأنهما أن يصرفا الإنسان عنها .

وقد علل المسعودى له بأن جولان الأرض وتخير بقاعها أشبه بذى العزة والأنفة ؛ فهم آثروا هذه الأرض لأنهم يتحكمون فيها وينزلون حيث يشاءون ، حر تصرفهم ، سليمة أبدانهم ، قويمة أخلاقهم .

وكتب ابن خلدون فى المقدمة أن البدو أقدم من الحضر وأسبق ، وأن أهل البدو أقرب من أهل الحضر إلى الخير إذ الفطرة إليه أقرب ؛ وأن أهل البدو أشجع لفقدان طمأنينتهم فى الحياة ، وعدم معاناتهم للأحكام التى تفسد البأس ؛ وأن أهل البادية أقرب إلى النصر الحربى ، فالأمة إذا كانت بدوية وحشية كان ملكها أوسع .

وقال بعض المحدثين : إنه سحر الصحراء ، وسرها الغامض ، ومعانيها غير المتناهية .

وعندى أن هذه تفصيلات تدور حول السبب الطبيعى وتشير إليه ، وأن كلام المسعودى وابن خلدون أشبه بوصف الحال منه بالتعليل .

أما هذا السبب ، فهو أن العربى يحيا حياة فطرية إلى حد ما ، لم يأخذ بحظ كبير من المدنية أو التعقيد فى أساليب الحياة . والإنسان بفطرته شديد التشبث بوطنه ، عظيم الحرص على اللصوق به ، وإن أُكره على مفارقته طلب أقرب الأمكنة منه وأشبهها به .

وقد قوت بيئة العربى فى نفسه معنى التشبث بالوطن الأول ، وقد فسر ذلك أحد خطباء العرب لكسرى ، حين سأله عن سكناهم البادية وتعلقهم بها ، فقال : « أيها الملك ! ملكوا

(١) خلاصة تاريخ العرب : ص ٣٦

الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا من التحصين بالأسوار ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له ، يردون منها خيارها ، ويقصدون ألطافها »[١] .

هذا تعلق العربى ببيئته ، فما أثره فى شعر الطبيعة العربى ؟

٩

يقتضى هذا النظر فى أقدم المأثور من الشعر العربى . ولست فى حاجة إلى الوقوف عند الشعر المنسوب إلى آدم ومن بعده من الأنبياء ؛ فواقع اللغة ونشأتها وتطورها وحداثتها بالقياس إلى سائر اللغات السامية ، كل ذلك ينكره . والمتأمل فيه وفى رواياته ينتهى إلى أنه من عمل شعراء العربية فى عهودها المعروفة ، قصًّا لحوادث التاريخ القديمة ؛ نسب بعضه إلى أصحابه من أمثال أمية بن أبى الصلت ، وجهل أو نسى أصحاب البعض الآخر فنسب إلى تلك الشخصيات القديمة[٢] .

أما الشعر العربى المذكور فإن النقاد لا يكادون يرجعونه إلى أكثر من مائة عام قبل الهجرة ؛ وهذا هو تاريخ الشعر الجاهلى من عصر امرئ القيس فما بعده . غير أن الشعر فى هذا العصر قد استوى على نحو كامل يؤذن بوجود محاولات كثيرة من قبل .

وهذا الجهل للشعر الذى سبق عصر النهضة الجاهلية يجعل البحث فى نشأة شعر الطبيعة عسيراً . لكن فناء البدوى فى بيئته ، ووثيق صلته بها ، وطبيعة حياته فيها ، تدل على أن الشعر العربى نشأ وحياً لبيئته ، وأن شعر الطبيعة بمعناه العام من أقدم فنون الشعر العربى .

وطبيعة الحياة العربية تؤكد ما روى من أن العربى القديم كان يحدو إبله ؛ وأنه بدأ هذا الحداء بترديد عبارات قصيرة يستعين بها على مشقة السفر ، كما أن العمال فى واحات النخيل وغيره كانوا يغنون استعانة على العمل ، وأن هذا الغناء ، وذاك الحداء تطورا حتى صارا من مواد الشعر الأولى . ويدل على هذا أقدم المأثور من الشعر العربى ؛ إذ وصف الصحراء وحيوانها

---

(١) مروج الذهب : ج ١ ص ٦٣٠ . (هامش نفح الطيب) .

(٢) جمهرة أشعار العرب ، ط مصر : ص ١٨ - ٥١ ، تاريخ الأمم والملوك للطبرى ؛ ط الحسينية الأولى : ج ١ ص ٧١-٧٢ و١١١- ١١٤ و١٤٣ ، ومروج الذهب للمسعودى : ج ١ ص ٣١-١٠٢

وصفاً سداه الملاحظة ، ولحمته الشعور الذاتى ، وبدت فيه الإبل والخيل مستولية على فؤاد العربى تمام الاستيلاء .

ولو أن الشعر العربى جاءنا كله لرأينا أمثلة حية لهذا الفن ، لكن ما انتهى إلينا منه ، وهو أقله ، كاف فى الدلالة على ما قبله .

روى ابن سلام أن من قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن تميم :

قد رابنى من دَلوى اضطرابها والنأى فى بَهراء واغترابُها
إلاّ تَجِىءْ ملأى يَجِىءْ قِرابها [1]

فهذا دليل الأغانى الشعرية التى كان العامل يرددها فى الواحات . ويشعر المتأمل فيها بمعنى المجاوبة بين الشاعر والدلو ؛ حتى لتحس بإحساسه ، وتضطرب باضطرابه . ولهذا أمثلة أخرى فى مأثور الشعر العربى [2].

ونحوه ما رواه ابن سلام أيضاً فى أقدم الشعر ؛ وهو ماقاله سعد بن زيد والنوار زوج أخيه مالك . كان سعد يرعى الإبل فأوردها الماء بعد ظمئها ، ومالك قاعد فى ثياب صفراء مزعفرة ، فأراد القيام لمساعدة أخيه ، فمنعته امرأته ، فجعل سعد يسقيها ويغنى :

يظـل يوم وِردِها مُزَعْفَـرا وهى خَنَاطيـلُ تجوس الخُضَرا

فقالت النوار لمالك : ألا تسمع ما يقول أخوك ؟ قال : بلى . قالت : فأجبه ، فقال ما أقول ؟ قالت قل :

أوردها سعـد وسعـدٌ مُشتَمِل ما هكذا تورد يا سعـد الإبل ! [3]

وهذا اللون من الأراجيز والأغانى الأولى لا زالت له بقايا فى كتب العربية [4]. وإلى جانبه وجد ما يصح أن يسمى : « شعر الينابيع أو الآبار » . ذلك أن الشاعر الجاهلى « كان نبى قبيلته وزعيمها فى السلم ، وبطلها فى الحرب ؛ تطلب الرأى عنده فى البحث عن مراع جديدة ، وبكلمته وحدها تضرب الخيام وتحل ، كما كان يحدو الرحالة العطشى فى التنقيب عن الماء .

(١) طبقات ابن سلام : ص ١١ .
(٢) ذيل الأمالى والنوادر : ص ٥٨ .
(٣) طبقات ابن سلام : ص ١٨ ، وفى رواية : أوردها سعد وسعد مشتمل ياسعد لا تروى بهذاك الإبل .
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٤٩ ، والعمدة لابن رشيق : ص ٧٠ .

ولعلهم كانوا إذا وجدوا ماء فشربوا منه واغتسلوا ، يغنيهم ، ويرددون من بعده ، مثل غناء إسرائيل :

أفض أيها النبع وأنتم فلتغنوا له »[١]

ونشأة الشعر العربى حول المعانى البدوية يدل عليها كذلك ما قيل من أن الحداء أصل الشعر ؛ وأن أوزان الشعر العربى رتبت على وقع أقدام الإبل ، حتى صار معنى الحداء فى العربية أو من معانيه قرض الشعر[٢] . وقد أشار إلى اتصال الشعر بالحداء وبالمتح بالدلو الجاحظ وغيره[٣] .

وسواء أصح أن السجع سبق الرجز ، كما يرى بعض النقاد ، أم أن السجع بداية عهد النثر بعد ازدهار الشعر ، فالمتفق عليه بين الجمهرة من مؤرخى الأدب أن الرجز أقدم أنواع الشعر تاريخاً . وفى لسان العرب أن أصل الرجز فى اللغة تتابع الحركات ، ومن ذلك قولهم ناقة رجزاء ، إذا كانت قوائمها ترتعد عند قيامها ، ومنه رجز الشعر لأنه أقصر أبيات الشعر والانتقال فيه من بيت إلى بيت أسهل . وقد أدى هذا ببعض المستشرقين إلى القول بأن أوزان الشعر العربى نجمت من أن راكب الإبل كان يغنى على وتيرة خطواتها .

ونحو هذا قول الأخفش : « الرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذى يترنمون به فى عملهم وسوقهم ، ويحدون به الإبل[٤] » .

وعبر إبراهيم بن هانئ عن صلة الشعر العربى بالطبيعة البدوية ، حين قال : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً[٥] » ، فكأنه يقول إن الشعر العربى لا يبلغ درجة الكمال إلا إذا كان الشاعر سليل البادية مهبط الشعر ؛ وإن صدور الشعر من ابن بيئته له وقع فى النفس يخالف صدوره بذاته من شاعر حضرى . ولهذا قدموا شعراء الوبر على شعراء المدر[٦] ، بل قال الأصمعى إن سبيل الشعر هو وصف الحياة البدوية بطبيعتها وحيوانها ، فإذا أُخرج عن هذا الطريق لان وضعف[٧] .

(١) Noldeke : Studien in Arabischen, Dechtern p. 177, & Nicholson's p. 73.
(٢) لسان العرب . رجز
(٣) البيان والتبين ، السندوبى : ج ١ ص ٢٠
(٤) لسان العرب : رجز .
(٥) البيان والتبين : ج ١ ص ٩٤ .
(٦) جمهرة أشعار العرب : ص ٧٥
(٧) إعجاز القرآن للباقلانى ؛ ط سنة ١٩١٥ : ص ٦٣ .

وظلت الطبيعة منزل وحى الشاعر ؛ تنطلق فيها نفسه ، وتجود قريحته . ومن هنا كان زهير يلجأ إلى الطبيعة حين يستعصى عليه الشعر ويقول : «إنه بَرِىٌّ» (١) . وقيل لكثير : كيف تصنع ، يا أبا صخر ، إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال : «أطوف على الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة ، فيسهل على أريضه ، ويسرع إلىّ أحسنه» (٢) . وكثيراً ما خرج الشعراء على ظهور الإبل إلى البادية يناشدون الشعر ، بل لعل كثرة الشعر الجاهلى قد قيلت على ظهور الإبل والخيل وسط الطبيعة .

فالشعر ابن الطبيعة ؛ منها نشأ ، وفى أحضانها ترعرع ، وبمثلها العليا بلغ الكمال . والجماعات البدوية التى تعيش فى عصرنا بعيداً عن المدنية لها حياة أدبية كحياة آبائهم الأولين . «فأعراب الشام لا يزال هواهم فى البادية ، وفيافيها الشاسعة ، وآفاقها الواسعة ، وحريتها المطلقة ، ووحشتها الرهيبة ، ونباتاتها وحيواناتها الغريبة . ولا يزالون يمدحون البوادى وشظف عيشها فى منظوم كلامهم ومنثوره (٣) » .

ولا تزال أغانى الدلو موجودة عند العرب فى صحراء سوريا (٤) .

ولا يزال أهل الحجاز البدويون يتطارحون الشعر فى وصف البادية على مثال أجدادهم (٥) .

* * *

ومن هذا كله يتبين أن شعر الطبيعة ، بمعناه العام ، من أقدم فنون الشعر العربى ؛ فالإنسان بما فطر عليه من الطرب وحب الغناء ، والعربى الذى اندمج فى الطبيعة بغير حاجز ولا حجاب ، أخذ يردد الأصوات فيجد فى ترديدها متاعاً ، وعوناً على تحمل وعثاء السفر ، فكان ما يسمونه الحداء . وتطور هذا الحداء إلى نظم كلام موزون يدور ، فيما يدور عليه ، حول البادية وحيوانها وصيدها ، فكان الرجز بوزنه العربى الأصيل ، أو المنقول ، فيما نقل العرب من أوزان السابقين ، كما يرى بعض المعاصرين ، وإن لم يثبت رأيه بعد . وعن الرجز تطور الشعر وتعقد حتى انتهى إلى تأليف القصائد فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وأوائل السادس عند امرئ القيس ، أبى الشعر العربى ، ومعاصريه .

---

(١) الموشح للمرزبانى : ص ٤٦ ، والأغانى (دار الكتب) : ج ١ ص ١٤١

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ١٧ و١٨

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى : م ١٦ ص ٤٧٣

(٤) Nicholson's : p. 73.

(٥) الدكتور محمد حسين هيكل باشا : فى منزل الوحى : ص ٣٢٢- ٣٢٦